الظواهر البحرية في شعر العصر الجاهلي

د. محمد عبد الرحمن الجاغوب

الملخص

مَن يعكفُ على دراسة شُعراء العصر الجاهلي وأشعارهم يتبيّنْ له أنّ أولئكَ الشعراءَ كانوا اللسانَ الناطقَ باسم مُجتمعاتهم والمرآة العاكسة لحياة تلك المجتمعات، فقد تنقلوا بين البوادي والسواحل، ووصفوا تضاريسَ بلادهم، وما يعيشُ على ثراها من حيوانات وما يظهرُ في سمائها من نجوم وكواكبَ وغمام وبرق ورعد ومَطر، ووصفوا مَعاركَهم وأيامَّهم، وتحدثوا عن قسوة الصحراء وشظف العيش فيها، وما يستلزمُ ذلك من الخصال الحميدة التي شاعت بينهم، كما وصفوا مجالسَ شُربهم ومُناداماتهم، فتغنوا بالكأس والساقية، وبالشواء والشاوي، وشبّبوا بالمرأة واتخذوها زوجة وعشيقة ونديمة كأس، وفصّلوا في وصف جَمالها، ولم يتركوا مَظهرًا من مظاهر حياتهم إلا وتحدثوا عنه، فكان شعرهُم سجلا مُخلدًا لتلك المَظاهر و الظواهر.

سعتْ هذه الدراسة لمعرفة الظواهر البحرية التي تحدّثَ عنها شُعراءُ العصر الجاهلي، ومعرفة أسباب تطرقهم لها، ومعرفة ما إذا كانوا أقربَ إلى البوادي أم إلى السواحل، وذلك بالإجابة عن عَدد من التساؤلات التي راودتْ الباحثَ ودفعته للقيام بهذه الدراسة، وقد اتبع فيها المنهج الوصفي التحليلي، وأثناء التنقيب في كُتب التراث أُتيحتْ له فرصة الاطلاع على بعض الدراسات التي تناولت موضوعَ البحر في شعر العصر الجاهلي، واستفادَ منها، وحاول أن يُمَيّزَ الدراسة الحالية بتعرّف الظواهر البحرية التي لم يتطرّق لها شعراء ذلك العصر.

توصّلت الدراسة إلى أنَ كثيرا من شعراء العصر الجاهلي تطرّقوا لذكر البحر، وكان حَديثُ بعضهم عنه سطحيا ولا ينُمّ عن خبرة، وكان حديثُ البعض الآخر أكثر مُلامسة لعدد من الظواهر البحرية، كالحديث عن السُفن وأجزائها وسَيرها، والدُرَر وغلاء أثمانها، ومَخاطر الغوص بَحثًا عنها، لكنّ ذلك كله كان في سياق تشبيه بعض الأشياء بالسُفن أو بالدُرَر، ولم يَجد الباحثُ - في حُدود اطلاعه- ذكرًا لظواهرَ بحرية أخرى، كوصف عَمليات الإبحار وعمليات الرُسُوّ والبحارينَ وأدوارهم، وتحديد الاتجاهات ووصف الحيتان وطيور البحر وعَمَليّتي المَدّ والجَزر، واستنتجَ أنّ شعراءَ العصر الجاهلي في مُعظمهم كانوا يَعشقون حياة البادية ويَتجنّبون حياة السواحل، ورُبّما يتهيّبون رُكوبَ البحر، باستثناء قلة من شعراء المناطق الساحلية الذين أتيحتْ لهم فُرَصُ التنقل والأسفار البحرية.

مقدمة:

منذ القِدَم وجزيرة العرب تُعَدُّ بيتَ العرب القديم والأثيل، على ثراها عاشت قبائلهم، لفحتهم شمسُ صحرائها وتفيّؤوا ظلالَ أشجارها وارتشفوا من مياه ينابيعها، وعلى أديمها نصبوا خيامَهم، وأقاموا مضاربهم، وطاردوا طرائدهم، وخاضوا معاركهم، وشهدوا أيامّهم ووقائعَهم، وأنشدوا قصائدَهم وأراجيزَهم التي تغنوا بها واصفين مظاهرَ حياتهم البدوية والحضرية على السواء، كما وصفوا تضاريس جزيرتهم جبالا وسهولا وأودية وصحاري، وما يعيش على ثراها من إبل وخيول وظباء وكلاب وذئاب، وما يظهر في سمائها من نجوم وكواكبَ وغمام، ووصفوا معاركهم وأيامَهم وآلاتِ حروبهم، وتباهوا بانتصاراتهم، وتحدثوا في أشعارهم عن قسوة الصحراء وشظف العيش فيها وعن مشاق الحياة، وما يستلزم ذلك من الخصال الحميدة التي شاعت بينهم كالكرم والشجاعة والنجدة وإغاثة الملهوف، وكثرة إيقاد النار التي على لهيبها تغتلي قهوتهم وتنضجُ ولائمُهم، وعلى نورها يُداعبُ شعراؤهم أوتارَ رباباتهم، وفي الحانات وصفوا مجالس شُربهم ومُناداماتهم، فتغنوا بالكأس وبالساقي وبالخمرة والزقِ والشواء والشاوي، وشبّبوا بالمرأة فاتخذوها زوجة وعشيقة ونديمة كأس، يأوون إليها للراحة من عناء السفر وهول المعارك وفصّلوا في وصف جمالها

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

جَسدا وسُلوكا. فكان شعرُهم سِجلا حافلا وديوانا مُخلدا لمظاهر حياتهم، تناقلوه بالرواية قبل إلمامهم بالقراءة والكتابة.

وبما أنّ شبه الجزيرة العربية لها شواطئ مُترامية كونها مَحوطة بالبحار من جهاتٍ ثلاث، فإنّ سؤالا كبيرا يطرحُ نفسَه فيقول: أين الظواهر البحرية في شعر العصر الجاهلي؟ هذا التساؤل الكبير تتفرع منه أسئلة أخرى عديدة، فهل كان للبحر ذكرٌ في قصائد شعراء ذلك العصر؟ وإن كان له ذكر في أشعارهم فهل كان ذكرُه عارضا ولماما؟ أم كان ينمّ عن خِبرة يقينية تقوم على التجربة والمُعايشة؟ مَن منهم تطرّق للحديث عن البحر ومائه وأمواجه وأسماكه وحيتانه وطيورِه وأصدافه ولآلئه وسُفنه ومَدّه وجَزرِه؟ هل ركبَ شعراءُ العصر الجاهلي البحرَ في تنقلاتهم وأسفارهم؟ هل وصفوا هديرَالبحر ومخاطرَه وأهواله كما وصفوا سائر شؤون الحياة الصحراوية التي مرّ ذكرها؟ هل ذكروا الدّفة والمرساة والنوخذة والنهّام والطوّاش في أشعارهم؟ هل تطرقوا للحديث عن عمليات الغوص والغواصين وعن مواسم الغوص وصيد البحر من لآلئ وأسماك؟ هذه الأسئلة تقوم عليها هذه الدراسة، وتسعى للإجابة عليها من خلال المُطالعة والبحث والتنقيب في العديد من قصائد شعراء العصر الجاهلي ومأثوراتهم، ومن خلال ما تيَسّرَ للباحث الاطلاع عليه من دراسات وبحوث.

× - امرؤ القيس بن حجر الكندي من قدامى شعراء العصر الجاهلي، يقول في قصيدته المُعلقه :

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله
عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلتُ له لما تمطى بصلبه
أردف أعجازا وناءَ بكلكل
ألا أيها الليلُ الطويل ألا انجلي
بصبح وما الإصباح منكَ بأمثل

تطرّق الشاعر في هذه الأبيات لذكر البحر تطرُّقا عارضا، فلم يكن البحر عنده مقصودا لذاته، بل جاء ذكره في سياق التشبيه، حيث شبه ليله الطويل بموج البحر المُستمر والمتتابع، ولم يزدْ على ذلك، فعاد في البيتين الثاني والثالث للحديث مُجَدّدا عن ليله الطويل.

× - عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب التغلبي، من شعراء المعلقات، جاء في معلقته قولُه :

ملأنا البرّ حتى ضاق عَنّا
وماءُ البحر نملؤه سفينا

المعرفة المتكونة لدى الشاعر عن البحر تتمثل في كون البحر مُسطحًا مائيا عظيم الاتساع، وأنّه عندما ضاق البرّ عن استيعاب قبيلة الشاعر لوفرة عُدَدِها وعَديدها توسعوا نحو البحر فملؤوه بالسُفن، وهذا من قبيل المبالغة، ولم يتطرق الشاعر في معلقته لأي من الظواهر البحرية، ربما لأنه لم يكن على علم بتفاصيلها وربما لأنّ المقام في معلقته لا يسمح بذلك.

× - عَبيد بن الأبرص من شعراء العصر الجاهلي، قالَ في إحدى قصائده مُخاطبا صديقه :

تَبيّن صاحبي أترى حُمولا
يُشبه سَيرُها عَومَ السفين

في هذا البيت يطلبُ الشاعر من صاحبِه أن يُدَقّقَ النظر ليَتأكّدَ من حقيقة ما يراهُ الشاعرُ من حُمولٍ وحُدوج ضخمة تسير على أديم الصحراء كأنّها سُفُنٌ ضخامٌ تعومُ فوق مياه البحر، ما يَصِفُه الشاعر هنا هو مراكبُ نساءٍ يَهُمّهُ أمرُهُنّ، ولكنه استخدمَ صورة السُفُنِ المُبحرة ليَجْعَها مُشَبّهًا به، والسُفن ظاهرة بحرية معروفة لعامة الناس.

× - عَمْرُو بنُ سعد بن مالك المُلَقّبُ بالمُرَقّش الأكبر:

لِمَن الظُعْنُ في الضُحى طافيات
شبْهُهَا الدَوْمُ أو خَلايا سَفين

والظُعْنُ هي الإبل التي تحملُ هوادجَ النساء ومُفرَدُها ظعينة، والطافيات هي العاليات، كأنها تطفو على الماء، والدَوْمُ نوعٌ من الشجر، والخلايا جمع خلية وأرادَ بها السفينة العظيمة، وقد جاء ذكرُ السفينة في سياق التشبيه أيضا، حيث شَبّهَ الظُعْنَ الضخمة بالسفن الضخمة، ولم يَجْرِ في خاطرالشاعر الحديثُ عن البحر مَوطنِ السُفُن. ويقولُ الشاعرُ ذاتُه في وصف ناقته:

تعدو إذا حُرّكَ مجدافُها
عَدْوَ رَباعٍ مُفْرَدٍ كالزُلَمْ

والمِجداف بالدال المُهمَلة أو المُعجَمة هو ما تُستَحَثُّ به الدّابةُ من سَوْط ونحوه، والرَباعُ هو الثَور، والمُفْرَد هو الذي انفردَ عن قطيعِه خشيةَ القناص فلا يألو عَدْوًا، والزُلَمْ هي قدَحُ المَيْسِر شبّهَهُ به في اندماج خلقه. و يقولُ في بيتٍ آخر:

بيضٌ مَصاليتٌ وُجوهُهُمُ
ليسَتْ مياهُ بحارهم بعُمُمْ

والمصاليت جمعُ مِصلات وهو الماضي في الأمور المُنجَرِدُ فيها، والعُمُم الكثيرة،

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

واحدُها عَميم.

يلاحَظُ من أبيات المُرَقّش الأكبر أنّهُ في بيته الثاني ذَكَرَ المِجدافَ وهو من مُستلزمات السفينة ولم يذكر البحر، وفي بيته الثالث ذَكَرَ مِياهَ البِحار ذكرًا عابرا لا ينُمّ عن معرفة حقيقية بالبحر، وإنما تُستَمَدُّ معرفته تلك من مصادرَ سماعية.

× - المُثقّب العبدي واسمه عائذ ولُقّبَ بالمثقب لقوله: "وثقبْنَ الوصاوصَ للعيونِ" شاعر جاهلي فحل، جاء على ذكر البحر في معرض وصف ناقته حيث قال في إحدى قصائده:

فبتُّ وباتَتْ كالنعامة ناقتي
وباتتْ عليها صفنتي وقُتودُها
على طُرُقٍ عندَ الأراكة ربَّة
تُؤازي شَريمَ البحرِ وهو قعيدُها

والصفنة وعاءٌ من الجلد يجعل فيه أهل البادية زادَهم وربما استقوا به الماء، والقتود بضم القاف خشبُ الرَحْل، واحدُها قتد بفتحتين، والأراكة موضع، والربة بكسر الراء المجتمعة تؤازي تحاذي وتقابل، الشَريم خليج انشَرَمَ من البحر، قعيدها: ملازم لها ولا يفارقها. إنّ ذكرَ المثقب العبدي للبحر في هذه الأبيات جاء ذكرًا عارضا أيضا وفي سياق الحديث عن وصف المكان الذي باتَ فيه وباتت ناقته، وهو مكان مُحاذٍ لخليج انشرمَ من البحر، وهذا حديث لا يشكل معرفة يقينية بالبحر. ويقولُ في وصف ظُعُنٍ محبوبته فاطمة:

لَمَن ظُعُنٌ تُطالعُ من ضُبَيْبٍ
فما خرجَتْ من الوادي لحينِ
مَرَرْنَ على شَراف ذات رَجلٍ
ونكّبْنَ الذرانحَ باليَمينِ
وهُنّ كذاكَ حينَ قَطَعْنَ فَلجًا
كأنّ حُدوجَهُنَّ على سَفينِ
يُشَبّهْنَ السَفينَ وهُنّ بُخْتٌ
عُراضاتُ الأباهرِ والشؤونِ

الظُعُنُ جمعُ ظعينة، وهي الإبلُ بهَوادجِها، ضُبَيْب وشَراف وذات رَجل والذرانحَ أسماء أماكن، نكّبْنَ: عَدَلْنَ عنه، فلج: طريق أو واد، الحُمول: الهوادج، البُخْت: الجِمال طِوال الأعناق، عُراضات بضم العين جمع عُراضة وهي ذات العَرض المُفرط، الأباهر: الظهور مُفرَدُها أبهَر وهو عرقٌ في الظهر، الشؤون: جمع شأن وهي شَعَبٌ تجري فيها الدموع. ولو تأمَّلَ القارئُ أبيات المُثَقّب هذه لَلاحَظَ فيها ذِكْرًا للسَفين وهي وسائط نقل بحرية والبحر موطنُها وميدانُها الفسيح، لكنّ الشاعر لم يُردْ من ذكرِها سوى أن يجعلها مُشَبّهًا به للظعن الضخمة، وهويستدرك بقوله أن الظعن يُشْبِهنَ السُفُن في الضخامة والعُلُوّ، وهنّ في الحقيقة جمالٌ أعناقها طويلة، فأينَ البحرُ؟ وأينَ خصائصُه في شعر المُثَقّب؟ ويمضي المُثَقّبُ واصفًا ناقته فيقول:

كأنَّ نَفيَّ ما تنفي يداها
قذافُ غريبةٍ بيَدَي مُعينِ
كأنّ الكورَ والأنساعَ منها
على قَرواءَ ماهرةٍ دَهينِ
يَشُقُّ الماءَ جُؤجُؤُها ويَعلو
غواربَ كُلِّ ذي حَدَبٍ بَطينِ

شبَّهَ الشاعرُ ما تنفي يدا ناقته من الحصى أثناءَ مسيرها بحجارة تقذفُ بها ناقةٌ غريبة أتَتْ لتَشْرَبَ من حوْضٍ غير حَوضها فَرُمِيَت بالحجارة، والكور: كورُ الرَحْل، وهو خشبُهُ وأداتُه، القَرواء: سفينةٌ طويلة القرا أي الظهر، الماهرة: السابحة، الدَهين: المدهونة، الجُؤجُؤ: الصدر، الغوارب: جمع غارب وهو من كل شيءٍ أعلاه، الحَدَب: ارتفاع الموج، البطين: البعيد الواسع. في الأبيات السابقة شَبَّهَ الشاعرُ ناقتهُ وهي تسير في الصحراء وعليها الكورُ والأنساع شبّهَها بالقرواء وهي السفينة السابحة في البحر بخفة ورشاقة يشقّ صَدْرُها عُبابَ الماء، وتعلو فوقَ كُتَلَ الأمواج الضخمة. لقد لامَسَ الشاعرُ في أبياته هذه شيئًا من مُستلزمات البحر وهي الأمواج الواسعة والضخمة، وقوله هذا يَنُمُّ عن معرفة جزئية بحَرَكة السُفُن وهي تعلو وتهبط فوق الأمواج العاتية.

× - جابر بن حُنَيّ التغلبي شاعر جاهلي قديم، قال في معرض حديثه عن قبيلته تغلب:

لتغلبَ أبكي إذْ أثارتْ رماحُها
غوائلَ شَرّ بينها مُتثَلّم
وكانوا هُم البانينَ قبلَ اختلافهم
ومَن لا يُشدْ بُنيانَهُ يتهدّم
بحَيٍّ كَكَوْثَلٍ السفينة أمرُهم إلى
سَلف عاد إذا احتلّ مُرْزِم

لقد ذكر الشاعر في أبياته هذه كَوْثَلٌ السفينة، وأرادَ به سُكّانها بضم السين وتشديد الكاف، وهو ذنَبُها الذي تُوجّهُ به، وتُسمّيه العامة بالدّفة، فيقول: إنّ حَيَّهُ أو قَومَهُ كانوا يُقيمون أمورَ الناس ويُوَجّهونها كما يُقيمُ السُكّانُ السفينة ويُحددُ اتجاهَها. وذكرُ الشاعر للسفينة يستلزم معرفته بالبحر، لكنّ حديثَهُ عن السفينة لم يأتِ على ذكرِها كوسيلة نقل بحرية لها مهامُّها ومُواصفاتها، ولم يتطرق بحديثه لصفات البحر الذي يحتضنها. بل جاء لمجرد تشبيه أهمية قومه في سياسة الناس

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

بأهمية سُكان السفينة.

× - يزيدُ بن الخذّاق الشَنّيّ العبدي شاعرٌ جاهلي قديمٌ أيضا، يقولُ مُخاطبًا الجارود بن المُعلّى الذي كان يعملُ قيّمًا على المُكوس في حكومة النعمان بن المنذر:

ألا يا بن المُعلّى خلتَنا وحَسبْتنا
صَراريَّ نُعطي الماكسينَ مُكوسا

الصراريّ: الملاحّون، والماكسُ هو الجابي، والمكوس ما يجبيه الماكسُ من رسوم وأجور. أوردَ يزيدُ في البيت السابق كلمة الصراريّ وعنى بها الملاّحين، وهم العاملون في البحر يدفعون الرسوم في الموانئ البحرية التي يمرّون بها، وكأنّ الشاعر أراد أنْ يدرأ عن نفسه وعن قومه صفة التبعية والخضوع لابن المُعلّى وسيدّه النعمان، وأنهم لا يُشبهون ملاّحي السُفن الذين يدفعون ما يُطلَبُ منهم، غير أنّ المُراد من هذا الشاهد هو الإشارة إلى البحر من طرف خفيّ، دون قصد إلى وصفه وتبيان كينونته وصفاته الجمّة.

× - بشامة بن عمرو بن هلال المعروف بِبَشامة بن الغدير، هو خال الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى، كان أحزمَ الناس رأيا وتستشيره غطفانُ في غزواتها، يقولُ في وصف ناقته:

إذا أقبَلَتْ قُلتَ مذعورةٌ
من الرُمْد تلحَقُ هَيقًا ذمولا
وإن أدبرَتْ قلتَ مشحونةٌ
أطاعَ لها الريحُ قلعًا جفولا

الرُمد: النعام، والهَيق: ذَكَرُ النعام، الذمول: المُسرع، أطاعَ: طوّعَ: جَعلهُ يُطيع، القِلع: الشراع، الجفول: التي تجفل فتُسرع. ما أراده الباحثُ من هذين البيتين هو تطرّقُ الشاعر في البيت الثاني لشيءٍ من لوازم البحر وهو السفينة المشحونة، حيث حذف الموصوف وأبقى الصفة، وشبّه ناقته وهي تمشي مُدبِرَةً ومُتّئِدة تنوءُ بحملها شبّهها بالسفينة المملوءة بالبضائع تشق عُباب البحر بهدوء واتزان، وفي هذا إشارة إلى أنّ الشاعر على دراية بشيءٍ من أحوال البحر كالجواري المُنشآت وحُمولاتها وأشرِعَتها وطريقة إبحارها، واعتمادها في حركتها وسُرعتها على درجة شدة الرياح التي تضرب تلك الأشرعَة، وهذا يُشكّلُ بَعضًا من علوم البحر التي يعرفها الشاعرمن خلال سماعه وترحاله وأسفاره.

× - زُهَير بن عَلس بن مالك بن عمرو المعروف بالمُسَيّب بن عَلس، واحدٌ من شعراء فترة ما قبل الإسلام، وهو خال الأعشى ميمون بن قيس، قال مادحًا القعقاع بن مَعبَد عظيم بني تميم:

ولأنتَ أجوَدُ من خليج مُفعَم
مُتراكم الآذيّ ذي دُفّاع
وكأنّ بُلقَ الخَيل في حافاته
يرمي بهنّ دواليَ الزُرّاع

الآذيّ: الموجُ أو السَيل، ذي دُفّاع: الماءُ يدفَعُ بعضُهُ بعضًا لكثرته وغزارته، الدوالي: جمع دالية وهي آلةٌ للسَقي، شَبّهَ أمواجَ الخليج المتلاحقة بِخَيل بُلق تتحرك بسرعة، لأنّ الموجة إذا ارتفعتْ كانَ ظهرها أبيض، فإذا انقلبت اسودّ بطنُها، فكأنّ الشاعر يريد أن يقول: يرمي الخليجُ بالموج دواليَ الزُرّاع. المتأمّلُ للبيتين السابقين يستنتجُ أنّ خِبرَةَ المُسَيّب بحال البحر أوسعُ من خِبرَة غيره من الشعراء الذين سبق ذِكرُهُم، فهو يتحدّثُ عن بحرٍ واسع الأرجاء مُتخَبّط الأمواج مُتدفّق المياه، ثم يُشبّه ممدوحَه بذلك البحر في العطاء والكرم، ويُشبه الأمواج البيضاء المتدافعة بالخيول البُلق الراكضة في الميدان، والصورة التي رسمَها للبحر وإن كانت عن غير قصد منه لتوصيف البحر إلا أنها تُشكّلُ تطوّرا في الصورة الذهنية التي يمتلكها الشاعر عن البحر وأحواله. ولعلَّ من أجمل ما قيل في الظواهر البحرية ما أورده حسين عطوان في دراسته، ونسبَهُ للأعشى ميمون وهو في الحقيقة للمُسيب بن علس حسب كثير من المصادر، وأوردته الإعلامية رانية صفا في مقالتها بجريدة الخليج الإماراتية:

نَظَرتَ إليكَ بعَين جازئَة
في ظلّ باردَة منَ السدر
كَجُمانَة البَحريّ جاءَ بها غ
وّاصُها من لُجّة البَحر
صُلبُ الفُؤاد رَئيسَ أربَعَة
مُتخالفي الألوان والنَجر
فَتنازَعوا حَتّى إذا اجتَمَعوا
ألقَوا إليه مَقالدَ الأَمر
وَغَلت بهم سَجحاءُ جارِيَةٌ
تَهوي بهم في لُجّة البَحر
حَتّى إذا ما ساءَ ظَنُّهُمُ
وَمَضى بهم شَهرٌ إلى شَهر
ألقى مَراسيَهُ بتَهلُكَة ثَبَتَت
مَراسيها فَما تَجري
فَانصَبَّ أَسقَفُ رَأسُهُ لَبِدٌ
نُزعَت رَباعيتاهُ للصَبر
أَشفى يَمُجُّ الزَيتَ مُلتَمِسٌ
ظَمآنُ مُلتَهِبٌ منَ الفَقر

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

قَتَلَت أَباهُ فَقالَ أَتبَعُهُ أَو
أَستَفيدُ رَغيبَةَ الدَهرِ
نَصَفَ النَهارِ الماءِ غامِرُهُ
وَرَفيقُهُ بِالغَيبِ لا يَدري
فَأَصابَ مُنيَتَهُ فَجاءَ بِها
صَدَفِيَّةً كَمُضيئَةِ الجَمرِ
يُعطى بِها ثَمَناً وَيَمنَعُها
وَيَقولُ صاحِبُهُ أَلا تَشري
وَتَرى الصَرارِيَ يَسجُدونَ
لَها وَيَضُمُّها بِيَدَيهِ لِلنَحرِ
فتلك شبه المالكية إذ
طلعتْ ببهجتها من الخدر

الجمانة: الدرة المتلألئة، النَجْر: الأصل، السجحاء: الطويلة الظهر ويقصد بها السفينة، لبد: مُتلبِّد، الرغيبة: العطاء الكثير. الصراري: جمع صارٍ وهو المَلّاح، والشاعر في هذه الأبيات يشبه محبوبته بهذة الدرة اللامعة الثمينة، ثم يتحول إلى طريقة استخراجها من مكمنها في أعماق البحر فيسهب في تصوير الغواصين مع رئيسهم وهم يتجادلون حول مكان وجود الدرة، ثم يتأهّبون للغوص، أرسوا السفينة، ورمى الغواصُ نفسَه في الماء، كان طويل القامة نحيل الجسم أشعث الشعر شديدَ الصبر قويَ الإصرار عل الظفر بالدرة أو الموت دونها كما مات والدُه من قبله، وراح يقذف الزيت من جوفه لينير له المكان، وانقطع عن رفاقه ساعات طويلة لا يعلمون عنه شيئا وهو يبحث ويبحث حتى عثر عليها فحملها فرحا بها، ثم طفا إلى سطح الماء وفرح رفاقه وحملوها إلى السوق، فأقبل عليهم التجار يسومونهم الدرة، ورئيسُهم يأبى أن يفرط بها ورفاقه من الغواصين يسجدون لها لنُدرتها ونفاسَتِها.

× - ربيع بن مالك بن ربيعة من بني أنف الناقة، يُعرَفُ بلقبُه المُخبّل السَعدي نسبة إلى سعد بن زيد مناة التميمي، شاعر جاهلي أدرك الإسلام وعُمِّرَ طويلا، قالَ أبياتًا في وصف محبوبته:

وتُريكَ وَجهًا كالصحيفة
لا ظمآنَ مُختلجٌ و لا جَهِمُ
كعقيلة الدُرِّ استضاءَ بها
محرابَ عرشٍ عزيزها العُجُمُ
أغلى بها ثمنًا وجاءَ بها
شَخْتُ العظام كأنَهُ سَهِمُ
بِلَبانه زِيْتٌ وأخرَجَها
من ذي غوارِبَ وَسطَهُ اللُخَمُ

شبّه وجهَ المحبوبة بالصحيفة في الملاسة واللين، والمختلج هو القليل اللحم والضامر، الجهم: الكثير اللحم البشع، عقيلة كل شيء: خِيرَتُه، العُجُم: فاعل الفعل استضاءَ، محراب: اسم منصوب على نزع الخافض ويُقصَدُ به صَدْر المجلس، أغلى بها ثمَنًا: اشتراها العزيزُ بِثَمَنٍ مُرتفع، شَخْتَ العظام: دقيق العظام، وذلك كناية عن الغوّاص الذي جاء بها من أعماق البحر وكأنّه سهمٌ في سُرعته ومَضائه، اللبان: الصدر، وقد طلى ذلك الغواصُ صدرَه بالزيت لحمايته من ملوحة ماء البحر، وهو تصرّفٌ يَدُلُ على خِبرَة بماء البحر وبعمليات الغوص، الغوارب: أعلى الأمواج، وقولُهُ (ذي غوارب) كناية عن البحر، اللُخَم: سمك القِرش. إنّ ما تهتمُّ به هذه الدراسة هي الأبيات الثاني والثالث والرابع، وهي الأبيات التي تتحدث عن لؤلؤ البحر وعملية استخراجه بالغوص، والمخاطر التي تُحدِقُ بالغوّاص، والأبيات المشار إليها تُمثِلُ تطوّرا مُهمّا في ذكر البحر وخصائصه، يتميز به المخبّل السعدي عن غيره من شعراء عصره، فالشاعر أسهبَ في وصف الدُرة البحرية وفي وصف غواصها والمخاطر التي تعترض طريق الحصول عليها، وأسماك القرش التي قد تهددُ حياة الغواص، وكلها تدلُ على خبرة متميزة في أحوال البحر، وهو ما كان يسعى إليه الباحث، ومع ذلك فحديث البحر عند المخبل السعدي ليس مقصودًا لذاته بل جاء عارضا في سياق المبالغة في وصف جمال محبوبته.

× - زهير بن أبي سُلمى بن ربيعة بن قرط المزني شاعر جاهلي، قالَ أبياتًا في وصف امرأة:

تنازعت المها شبها ودر
البحور وشاكهت فيها الظباء
فأما ما فويق العقد منها
فمن أدماء مرتعها الخلاء
وأما المُقلتان فمن مهاة
وللدر الملاحة والصفاء

المشاكهة: المشابهة، والأدماء: الظبية البيضاء.

يلاحِظ الباحثُ أن زهيرًا لم يلامس موضوع البحر إلا بإشارة ضمنية من خلال وصفة امرأة جميلة تلبس عقدا من اللؤلؤ الأبيض المكنون، حبّاتُه لامعة وصافية، باعتبار أنّ الدُرّ مَصْدَرُه البحر، وهو لم يتطرق إلى مصدر اللؤلؤ ولا إلى كيفية استخراجه كما فعل المُخبّل السعدي.

× - بشر بن أبي خازم شاعر جاهلي قديم ينتمي إلى بني أسد، قال شعرا يصف فيه سفينة:

أجالد صفهم ولقد أراني

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

على زوراءَ تسجدُ للرياح
مُعَبّدَةُ السَقائِفِ ذاتِ دُسْرِ
مُصَبّرَةٌ جوانبها رداحِ
إذا ركبتْ بصاحبها خليجا
تذكر ما لديه من جُناحِ
يَمُرُّ المَوجُ تحتَ مُشَجّرات
يَلينَ الماءَ بالخشبِ الصِحاحِ
ونحن على جوانبها قعودٌ
نغضُ الطرْفَ كالإبل القِماحِ

زوراء: سفينة، الغضّ: الذل في الطرف، القِماح: الرافعة الرؤوس. في أبيات الشاعر بِشر وصفٌ لرحلة بحرية على سفينة وصفها بالزوراء تسوقها الرياح عندما تضرب شراعَها، وسجودُها للرياح كناية عن أنّ الفضل في حركتها يعود إلى الرياح، وهي سفينة تُبحر في خليج وعلى متنها يجلس الرُكّابُ مُتقابلين يغضّون الطرْفَ خوفا مِمّا يجري من حولهم من أمواج تتقاذف سفينتهم وكأنّهم إبلٌ قِماح، تشرَئِبُّ أعناقها للأعالي حتى لا ترى ما يُحيط بها من أنْباج وأمواج، ويبدو من هذه الأبيات أنّ ابن أبي خازم من أكثر الشعراء الذين مَرّ ذكرُهم تجربة مع البحر في تفصيله لسير السفينة، ولوضعية جلوس الركاب، ولحالتهم النفسية القلقة من ركوب البحر، عدا عن كون أبياته هذه قد قيلت في رحلة بحرية، وليس في سياق وصف هودج أو محبوبة، ويمكن احتسابُها من الشعر المتخصص في وصف أحوال البحر.

× - طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك البكري

أحدث شعراء العصر الجاهلي سِنّا واقصرهم عُمُرا، تحدّث طرفة في بعض أبيات معلقته عن محبوبته وشبّه مركبها بالسفينة فقال:

كأنّ حُدوجَ المالكية غدوة
خلايا سفينٍ بالنواصفِ من دَدِ
عَدَوْلِيَةٌ أو من سَفينِ بن يامنٍ
يجورُ بها الملاحُ طورا ويهتدي
يشقُ حِبابَ الماء حَيزومُها بها
كما قسّم التُربَ المُفايلُ باليَدِ

الحُدوج: مفردها حِدج وهو المركب من مراكب النساء، والمالكية نسبة إلى بني مالك، الخلايا: جمع خاية وهي السفينة العظيمة، النواصف جمع ناصفة وهي نواحي الأودية، دَد: اسم واد، عَدَوْلِيّةٌ: نسبة إلى قبيلة عَدَوْلى البحرانية وابن يامن رجُلٌ من أهلها، يجورُ بها الملاح: يَعدلُ عن الطريق، حباب الماء: أمواجه، الحيزوم: الصدر، المفايل: مشتق من الفيال وهو ضرب من اللعب بالتراب، حيث كان أحدهم يدفن شيئا في التراب ثم يقسم التراب إلى نصفين، ثم يسأل عن الشيء الدفين في أي جزء، فإن عرَفَ قَمِر وإن أخطأ قُمِر. يصف الشاعرُ موكبَ حبيبته المالكية والمراكب التي تسير معها وهي ترحل غُدوة ويشبهها بالسُفُنّ الضخمة المملوكة لابن يامن، يشق صدرُها ماءَ البحر إلى نصفين عظيمين، تماما كما يشق اللاعب بالتراب كومة التراب بيده إلى قسمين، ويشبه سير المراكب النسائية على طريق الوادي سالكة اتجاها صحيحا تارة وناكبة عنه تارة أخرى بسير المَلاح يهتدي إلى المسار تارة ويَحارُ أخرى، يُستنتج من هذا القول أن تشبيه هوادج النساء بالسفن في الضخامة هو تشبيه عاديٌ مألوف يقوم على معرفة سماعية بسفن البحر أو مشاهدة لها عن بُعد، عدا عن كون الأبيات جاءت في سياق وصف مراكب المحبوبة، ولم يقصد الشاعر الحديث المباشر عن السفن كوسائط نقل بحرية ولا الحديث عن البحر كحاضنٍ لها ولا عن الرياح التي تسيّرها ولا الأمواج التي تحدق بها ولا المخلوقات البحرية التي يمكن مشاهدتها أثناء الرحلة البحرية.

× - لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري من شعراء الجاهلية وفرسانها، أدركَ الإسلام وحَسُنَ إسلامه:

وتضيء في وجه الظلام منيرة
كجُمانة البحري سُلَّ نظامُها

الجُمانة: الدُرّة، يصف الشاعر في هذا البيت بقرة وحشية وهي تعدو مُسرعةً أولَ الظلام وقد أوتْ إلى جذع شجرة لتقي نفسها من مطاردة الوحش لها، ويشبهُها بدُرّة الصدف البحري التي سُلَّ نظامُها فانفصلت عن عقدها وتحركت من مكانها، ووجه الشبه بينهما هو اللمعانُ والحركة، كما أنّه شبه ناقته بهذه البقرة في سرعة سيرها، والشاهد في هذا البيت هو الإشارة إلى البحر في سياق تشبيه أشياء بعيدة عن عالم البحار بأشياء لها علاقة بها، وربما يكون ذلك ناجما عن ثقافة ألمّ بها الشاعر أو استمع إليها ولم يُعايشها عن كثب.

× - سُوَيدُ بن أبي كاهل اليشكري

شاعر مُخضرم، عاش في الجاهلية دهرا وعُمّرَ في الإسلام أيضا، قرَنه ابنُ سلاّم الجُمَحي في طبقاته بعنترة العبسي، يقول سُوَيدُ في سياق الحديث عن شيطانه الذي يُلهِمُه الشعر:

ذو عُبابٍ زَبَدٌ آذيَهُ

خَمطُ التيار يَرمي بالقِلَعْ
زغربيٌ مُستَعِرٌ بَحْرُهُ
ليس للماهر فيه مُطّلَعْ

العُباب: تكاثف الموج واضطرابه، الآذيّ: تيّارُ الماء الدَفّاق، خمط التيار: مُضطربُه ومُتلاطمُه، القِلَع: جمع قِلعة وهي الصخرة العظيمة والمراد بها الأمواج الضخمة، الزغربي: الكثير الماء، المُستعر: الذي لا يُقدَرُ عليه، الماهر: الحاذق. يقول الشاعر: إنّ شيطانَه بَحرٌ عميقُ الغَور عاتي الموج ليس للسابح الماهرمنه مُخرجٌ ولا منقذ. ومن الملاحَظ هنا أنّ ذكرَ البحر لم يكن مقصودا لذاته أيضا، بل جاء في سياق تشبيه شيطان الشعر بالبحر.

٢- الأعشى ميمون بن قيس بن جندل بن عوف بن سعد بن ضبيعة ينتهي نسبه إلى قبيلة بكر بن وائل أحد شعراء العصر الجاهلي وأحد أصحاب المعلقات، جاء في قصيدته التي مطلعها:

(نام الخلي وبتُّ الليلَ مُرتفقا):

كَأَنَّها دُرَّةٌ زَهراءُ أَخرَجَها غَوّاصُ
دارينَ يَخشى دونَها الغَرَقا
قَد رامَها حِجَجاً مُذ طَرَّ شارِبُهُ
حَتّى تَسَعسَعَ يَرجوها وَقَد خَفَقا
لا النَفسُ تونِسُهُ مِنها فَيَترُكُها
وَقَد رَأى الرَغبَ رَأيَ العَينِ فَاحتَرَقا
وَمارِدٌ مِن غُواةِ الجِنِّ يَحرُسُها
ذو نيقَةٍ مُستَعِدٌّ دونَها تَرَقا
لَيسَت لَهُ غَفلَةٌ عَنها يُطيفُ بِها
يَخشى عَلَيها سَرى السارينَ وَالسَرَقا
حرصاً عَلَيها لَوَ انَّ النَفسَ طاوَعَها
مِنهُ الضَميرُ لَيالي اليَمِّ أَو غَرِقا
في حَومِ لُجَةِ آذيٍّ لَهُ حَدَبٌ
مَن رامَها فارَقَتهُ النَفسُ فَاعتُلِقا
مَن نالَها نالَ خُلداً لا انقِطاعَ لَهُ
وَما تَمَنّى فَأَضحى ناعِماً أَنِقا
تلكَ الَّتي كَلَّفتكَ النفسُ تَأمُلُها
وَما تَعَلقتَ إِلّا الحَينَ وَالحَرَقا

حججا: أعواما، تسعسع: هرم واضطرب، الرغب بفتحتين: المرغوب فيه، ذو نيقَة: اسم من التنوّق، والتنوق في الأمر المبالغة في وجوده، دونها ترقا: دونها درج تختبئ فيه، أنقا: مسرورا، الحَين: الهلاك. يبدو أنّ الأعشى ميمون كان في هذه الأبيات الأكثر تفصيلا في وصفه للدرة التي أخرجها من لجة البحر غواصٌ عَرَّض نفسه لمخاطر الغرق بعد أن أمضى سنينَ يحلم بالحصول عليها، وكاد أن يهلك دونها، ولما وصل إلى مكانها وجدَها محروسة بعفريت من الجن قد بالغ في حمايتها، ولما تجاوز الغواصُ تلك المخاطر والأهوال ووصلتْ يدُه إليها أحسّ بنشوة الانتصار والفرحِ. المُتأمِّلُ لأبيات الأعشى يجد أن الشاعر بالغ في وصف المخاطر التي تعرّض لها الغواص وذلك من أجل إعلاء قيمة تلك الدرة، وكون تلك الدرة فريدة في أهميّتها وغلائها عند صاحبها يعني أنّ الفتاة التي اصطادت قلب الشاعر فريدة أيضا في جَمالها وعزيزة على قلبه، وأنه بات يسهرُ حالما بنيلها، فهو الذي يقول في بيت سابق:

صادتْ فؤادي بعَيني مُغزِلٍ خذلتْ
ترعى أغنّ غضيضا طرفُه خَرِقا

أبيات الأعشى هذه تتفق مع غيرها من الأبيات التي وصفت الجُمانَ والدُرر الثمينة في سياق تشبيه شيء عزيز بهذه الدُرر، لكنّ كلمة حَق تقال أن الأعشى في وصفه حالة الغواص وعملية الغوص والمخاطر والأهوال التي أحاطتْ بالعملية قد مَيّزتهُ عمّن سواه في خبرته بشؤون البحر، وربما يكون هذا ناجما عن وصوله إلى الشواطئ لكثرة أسفاره وتنقله بالسفن.

الخاتمة:

تمكّنَ الباحث في دراسته هذه من الاطلاع على كثير من قصائد العصر الجاهلي عن طريق قراءة الدواوين والمُعلقات والمُجمهرات والمُذهّبات والمَقطوعات الشعرية المتفرقة، كما اطلع على بعض الدراسات السابقة واستفاد منها، كدراسة الدكتور حسين عطوان، ودراسة الدكتور سعد خضير عباس، ودراسة الدكتور عطية سليمان أحمد، وحاول أن يُمَيّزَ هذه الدراسة عن سابقاتها، ففي حين اقتصرتْ تلك الدراسات على توصيف ما أورده الشعراء في قصائدهم سعى الباحث في هذه الدراسة إلى تحديد عدد من الظواهر البحرية التي أغفلها شعراء ذلك العصر.

توصَّلَ في ختام هذه الدراسة إلى عدد من الحقائق منها أنّ شعراء العصر الجاهلي عرفوا البحرَ وذكروه في قصائدِهم، ولكنّ هذه المعرفة منها ما هو عارض وناجم عن الاستماع والرواية كعمرو بن كلثوم التغلبي، وجابر بن حُنَيّ التغلبي، ويزيد بن الحذاق الشنيّ، الذين ذكروا البحر لِمامًا في سياق الفخر بالقبيلة، وهم غالبا من سكان البوادي ولم يقتربوا في حياتهم من السواحل، ومنها ما هو يقيني قائم على المُعايشة والتجربة، وأنّ الذين عرفوا البحر معرفة يقينية هم الذين كانت لهم تنقلاتٌ وأسفار بَحرية ويرتادون السواحل، وذِكرهُم للبحر جاء في سياق

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

التشبيهات، ويكاد ينحصرُ في محورين بارزين، هما: تشبيه هوادج النساء بالسفن، وتشبيه النساء الحِسان بِجُمان البحر ولآلئه، فمنهم من شبّه مراكبَ النساء وحُدوجَهن بالسفن الكبيرة، ومنهم من وصفَ أحجامَ السفن وتركيباتها الخشبية كبِشر بن أبي خازم، وطرفة بن العبد، وعَبيد بن الأبرص والمُرقش الأكبر، والمُثقّب العبدي، ومنهم من شبّه ناقته وهي تسير فوق أديم الصحراء بالسفينة المثقلة بحملها وهي تمخرُ عُباب الماء، كالمثقب العَبدي، وبشامة بن الغدير، ومنهم مَن شبه محبوبته بالجُمانة والدُّرّة كالمُخبّل السعدي، ومنهم مَن فصّلَ في كيفية الحصول على تلك اللآلئ والدُّرَر من خلال رحلات الغوص فأظهروا دِراية وخِبرة لا بأس بها بالظواهر البحرية كالأعشى وخاله المُسيّب بن علس.

ويرى الباحث أن مُجمل شعراء العصر الجاهلي لم يتحدثوا عن الظواهر البحرية بقصائد مستقلّة بعيدا عن تشبيه الأشياء بالبحر، بل وأغفلوا كثيرًا من تلك الظواهر، فلم يصِفوا حِيتانَ البحر وأسماكه، ومَدّه وجَزْرِه، ولم يصِفوا عمليات الإبحار ولا عمليات الرُسُوّ ولا وسائل الاهتداء وتحديد الاتجاهات في عُرض البحر، ولم يصفوا الطيور التي تُحلق فوق الماء كطيور النورس، وظاهرة الاشتباك بين النوارس المُرفرفة فوق الماء والأسماك التي تطفو على سطح الماء، كما أنّ أحدًا منهم لم يتحدث عن الطرق البحرية وأسماءِ الموانئ والمراسي، ولا عن وظائف البحارة وأدوارهم، كدَورِ النوخذة والنهّام والطوّاش وغيرهم.

المراجع:

- ابن أبي خازم، بشر (١٩٦٠). ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق عزة حسن، دمشق: مديرية إحياء التراث القديم.
- ابن الأبرص، عَبيد (١٩٥٧). ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق حسين نصار، القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (٢٠٠١). الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر،ط٣، ج١، القاهرة: دار الحديث
- أحمد، عطية سليمان (٢٠١٥). النظرية الأسلوبية دراسة تركيبية شعر المثقب العبدي نموذجا، القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي.
- حسين، محمد محمد (١٩٦٨). ديوان الأعشى ميمون بن قيس، بيروت: المكتب الشرقي للنشر
- الزوزني، الحسين بن أحمد (٢٠٠٤). شرح المعلقات السبع، تقديم عبد الرحمن المصطاوي، ط ٢، بيروت: دار المعرفة.
- صفا، رانيا (٢٠٠٢). الشعراء الجاهليون عرفوا البحر وكنوزه، صحيفة الخليج الثقافي عدد ٨٥٠٦
- الضبي، المفضل (د.ت) المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط ٥، القاهرة: دار المعارف.
- عباس، سعد خضيّر (٢٠١٠). السفينة والبحر في الشعر الجاهلي، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد ٦٥، جامعة ديالى.
- عويّد، عبد علي (٢٠١٧). الدعوة إلى السلام من الشعر الجاهلي، مركز الكتاب الأكاديمي.
- القرشي، أبو زيد (١٩٩٢). جمهرة أشعار العرب، تحقيق علي فاعور، ط٢، بيروت: دار الكتب العلمية.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2